٩- ابن الأصول

عُرف"شريف حسونة الفقي"ابن العمدة "حسونة الفقي"، ووالد الحسناء "رجاء" في قرية "كفر الهوى"بأنه سليل المجد والشرف، كان فارع الطول، ذا ملامح شرقية، بشرته قمحية اللون، ورغم أن عمره خمسة وخمسون عامًا مازال شعره شديد السواد، وصحته جيدة كشاب في العقد الثلاثين من عمره، كانت له هيبة تظهر أينما حل، ودون أن ينطق بفرض سطوته بحسن طلعته، ويؤكدها بسلامة منطقه أثناء الحديث، فعندما يتكلم يجبر من أمامه على الصمت لرجاحة رأيه، عُرف عنه منذ صغره طيبة القلب، كان حصيفًا في تصرفاته، يتحسب العواقب، والمحاذير، وبعد تخرجه من كلية التجارة عين بمصلحة الضرائب، حتى أصبح مديرًا عاما بها، وتميز في العمل بطهارة اليد، والأمانة، وشدة حسمه للأمور.

كان والده الراحل عمدة القرية، وبلغ نفوذه كل القرى التي تجاورها، بيد أنه دفع ثمن ذلك النفوذ بأن أهمل زراعة أرضه، ومصالحه الخاصة، فباع معظمها على توطيد هذا النفوذ، حتى وافته المنية ١٩٩٥م، ولم يبق من أراضي العائلة سوى ٤٠ فدانًا من جملة مئتي فدان، ووزع الميراث على أولاده، وكانوا ثلاثة رجال وبنتين، بلغ نصيب "شريف حسونة الفقي" عشرة أفدنة، كان حبه للأرض يساوي حبه للحياة، فأقسم هو وأخوته بأن يقضوا مابقي من أعمارهم ليستعيدوا ما بدده الأب من الأراضي، ورفضوا أن يتولى أحدهم منصب العمودية بدلاً من أبيهم، فقد أكلت في الماضي معظم ما ورثه أبوهم من أراض، ولذا ظلت القرية لفترة دون عمدة، إلى أن تولى "وهدان أبو طقية" المنصب.

كان "وهدان أبو طقية"فلاحًا قصيرًا قمحي اللون، وتجاوز الستين من عمره، أما تعليمه فقد انتهى عند المرحلة الإعدادية، اشتهر بالمراوغة، وشدة البخل، ومنذ شبابه وهو من بين أعضاء المجلس المحلي بالقرية، ولا يملك سوى ثلاثة أفدنة، تكفي أسرته المكونة من ثلاثة رجال متزوجين وأولادهم بالكاد، فكان كلما طلب أحد منه خدمة ألزمه بنفقات انتقاله، وفطوره، ودخانه، حتى ضاعت هيبة المنصب، وأصبح أضحوكة بين بني جلدته لتدني هيبته، وبسبب قلة حيائه، يتهكم عليه كل من هب ودب، وأصبح الناس يطلقون عليه لقب "عمدة بسيجارة"

فكان يشهد مع هذا إذا ألقمه قليلا من المال، ويوقع على الأوراق التي تتطلب توقيعه، بعشرة جنيهات للتوقيع الواحد، حتى لفظته الإدارة بعد ثلاث سنوات بأن فصلته، بعد أن لطخ وقار المنصب بالطين والوحل، وظلت القرية بعدها دون "عمدة" حتى جاء "دياب النمر" محملا بزخرف الأموال الحرام، فاستقر في المنصب، دون أن يعلم الجميع عن مصدر ثروته شيئًا.

وبمرور الأيام سريعة كعادتها، وبعد عقد ونصف من الزمان، مازال"شريف حسونة الفقي"وأخوته يمارسون أعمالهم كالنحل في خلاياه، ولا يتوقفون عن العمل سوى لالتقاط الأنفاس،حتى استطاعوا بالعرق والكفاح، استعادة نصف مابدده الأب من أراض. وانسحبوا من الحياة العامة، إلّا في بعض النواحي الإنسانية، والاجتماعية، كالمجاملات في الأفراح، والشد من أزر المكلومين، ومصالحة بعض المتخاصمين حال اللجوء إليهم، هذا الدور أبقى لهم الريادة الأخلاقية في القرية، بعيدًا عن الشق الرسمي.

جلست "سعاد" تنتظرعودة زوجها "شريف حسونة الفقي"كي تخبره بقدوم خاطبا لابنتهما، كان الفرح يملئ وجهها، فتزداد تألقًا، كانت طويلة، وبيضاء بارعة الحسن، والجمال، حسنة المعشر، أبوها كان قاضيًا عادلاً، أحسن تربيتها، وعلمها حتى تخرجت من كلية الآداب، وعملت مُدرّسةً للتاريخ بمدرسة القرية الإعدادية، وتدرجت بالمناصب التربوية حتى ترقت مديرًا عامًا بالإدارة التعليمية، وأُسند إليها مهمة التخطيط والمتابعة، أما عن عمرها

فقد أتمت الخمسين عامًا.

كانت العروس "رجاء"بكريتها، وأول فرحتها، ولذا كانت سعادتها بهذا النسب تفوق كل الحدود، وما يرىح قلبها أن منزل العريس بجوارها، وسترى ابنتها كل يوم، وهذا أشد ما يرىح الأمهات، منذ الصباح وهي تتمنى أن يطوي الغروب النهار، ليأتي المساء حتى تخبر رب العائلة بطلب أم "غريب"، كانت فخورة بهذه المصاهرة، ومتأكدة من موافقة زوجها، فقد كان معجبًا بقصة كفاحه، وقوة صبره، وكان يضرب به المثل أمام أولاده الذكور حتى يقتدوا به، كما أن أصله الطيب يرجح كفته، وبمجرد أن انتشر الخبر في المنزل ساد جو من التفاؤل، الكل ينتظر عودة الأب لمباركة هذه الزواج.

أما فرحة "رجاء" كانت تشي بحبها، عيونها تلمع من فرط السعادة، والبسمة لم تفارق شفتيها منذ الصباح، كادت من بهجتها أن تحلق في السماء، لتخبر الدنيا عن حالها البهيج، لقد جاء اليوم الموعود الذي كانت تنتظره بفارغ الصبر، قلبها يرقص، وروحها تحلق فوق الأماني، وتغوص بأفكارها في ربيع الأحلام الوردية، كانت تتخيل شكل حفلة الخطوبة، ولون فستان الفرح، ومكان ليلة الزفاف، وتتساءل بينها وبين نفسها:

- تري هل سوف يحملني "غريب" بين ذراعيه في ليلة الدخلة، ويصعد بي السلم حتى غرفة النوم، كما في الأفلام.

حملها هذا التخيل نحو محاولة استكشاف ما هو قادم، بمواصلة الأحلام البيضاء طوال النهار، كانت تفكر في تفاصيل كثيرة، من الفرحة لم تأكل طوال اليوم، كانت تشعر بالشبع، بعد أن تحقق نصف الرجاء بقدوم أم الحبيب لتخطبها.

عاد "شريف حسونة الفقي"إلى منزله في المساء، وبعد أن تناول العشاء في البهو الكبير، انتقل يحتسي الشاي بزاوية منه، وتحركت خلفه زوجته، وجلست بجواره، وظلت "رجاء" تتصنع تناول الطعام لتسمع ما يدور من حديث، كانت أذنها معهم تلتقط كل كبيرة وصغيرة، وعيناها في الأطباق، سمعت أمها تخبره

بقدوم "حميدة" تطلب مصاهرة العائلة، فصمت لبضع لحظات، أقلقها صمته، فلم يرد عليها إلّا بعد أن أكمل شرب كوب الشاي، بعدها اعتدل في جلسته، والكل ينصت ليسمع قراره، المفاجأة أنه رفض هذه المصاهرة، سيطر الذهول على وجه الجميع، وعندما شعر بذلك، لم يلق بالاً، فبادرته زوجته بحماس تسأله أن يبرر أسباب هذا الرفض:

- سعاد: لماذا تغيرت هكذا تجاه الفتى؟ أترفضه بسبب ما ينشر عنه من سخرية على الفيس بوك ؟
- شريف: كلا، فأنا أحترم أي محاولة جديدة تهدف لزيادة الإنتاجية، فالموسيقى بالتأكيد لها تأثير إيجابي على من يسمعها من البشر، ومن الوارد أن تؤثر على الحيوان، وتلك التجربة قرأت عنها في بعض دول أوروبا الغربية، ومحاولة الفتى لنقلها إلى مصر شيئ جيد.
- سعاد:إذن لماذا الرفض؟
- شريف: لأنه عقد شراكة مع "دياب النمر"
- سعاد: وما الضرر في ذلك؟
- شريف:هذا الرجل المريب مصدر ثروته غير معلوم، ومن الواضح أنه جمع المال بما يخالف القانون، ولذا أرفض هذا الزواج حتى تتضح الحقيقة.

نهضت"رجاء" تتحرك نحو غرفتها بغيظ، وتخبط الأرض بقدميها وهي تمشي، تركت الأطباق على المنضدة على غير عادتها، فقد كانت تجمعها بعد الأكل لتغسلها، لاحظ الجميع الغضب الصامت مرسومًا على جبينها، وأدرك الأب في هذه اللحظة بفطنته أن ابنته تذوب عشقًا في الفتى.

صعدت رجاء السلم ودخلت غرفتها حزينة، وأغلقت الباب وانهارت باكية،

كانت دموعها تهطل بغزارة، ولا تدري ماذا تفعل، تبعتها أمها لتهدأ من روعها، ووعدتها بأنها سوف تحاول مع أبيها مرة أخرى وانصرفت، بعد لحظات فتحت الكمبيوتر لتخاطب "غريب" فلم تجده، وكتبت له الرسالة التالية:

بنت النيل: حبيبي "غريب" أرى أن القدر يعاندنا، لقد رفض أبي طلبك للزواج مني، ولا أدري ماذا أفعل، وحتى لا تصدم لاتقلق، فمن جهتي سوف أظل متمسكه بك إلى آخر يوم في عمري، ولن أقبل بغيرك بديلا، حتى لو خطبني ملاك من السماء، فأنت ملاكي، وأميرى، وكل شيئ في حياتي، وعهدي معك أن أكون لك فقط، ولن أكون لغيرك، فاصبر معي، وساعدني على الصبر بثباتك، إلى أن يجمعنا الله تحت سقف واحد.

عاد"غريب"إلى الفيس بوك، وفتحه وقرأ الرسالة، ورد عليها:

ابن النيل: حبيبتي لقد تعودت الصبر حتى أنال ما أريده، وسوف أُقنع والدك بضرورة إتمام هذا الزواج، فلا تبتئسي، ولا تحزني، فحبنا في قوته أكبر من هذا الكون الفسيح، وأكبر من كل التقاليد الواهية، ربما كان سبب الرفض من والدك هو مشاركتي للعمدة"دياب النمر"، وسابقًا قلت لك أن السبب هو توفير سيولة مالية للمشروع حتى أتمكن من مصاريف الزواح، كنت أود أن أقيم لك حفل زفاف ليس له مثيل، كأنه حفل الزاوج من الملكة، وبالفعل أنتِ ملكة في مملكتي، وأجمل وردة في عالم الحب الطاهر.

أود أن أخبرك بسبب آخر لهذه الشراكة مع "دياب النمر"، هو إلحاح دياب النمر على العمل معي، وقد رددته مرتين، وفي المرة الثالثة وضعت شروطا أعلم أنه سيرفضها، فقبلها، فاستحييت أن أرده، فربما أكون سببًا في صلاح حاله، وعندما طلب فض الشراكة بعد حملة التشهير بالمشروع تأكدت أنه له مأرب آخر حتى الآن لا أعلمه، فرددت له كل أمواله اليوم.

حبيبتي لا عليك من حزني، فالحزن سوف ينزوي مهزومًا أمام بهجة الحب عما قريب، سوف ننتصر معًا على أعداء الغرام، ولا أظن أن والدك منهم، فربما بنى قراره على تصورات غير قائمة، إلى اللقاء.

عندما قرأت رسالته استقرت لثباته، وعلمت أنه لن يستسلم، وسوف يحاول ثانية، ومهما بلغ عدد المحاولات لن يضربه اليأس.